بلاغة الاستصراخ
في الخطاب السياسي

الطالب الباحث أحمد مشبال
جامعة عبد المالك السعدي – مرتيل
المغرب

ملخص البحث:

يروم هذا البحث مقاربة خطاب الاستصراخ مقاربة بلاغية تتغيى كشف بلاغة هذا الخطاب في نموذج الرسائل السياسية التي استصرخ بها ملوك الطوائف، وهو نوع خطابي يتميز بكون الدعوى فيه هي الجهاد، لكنها مثقلة بصوت النجدة، فالنص سيتزاوج فيه الصوتان معا، ونحن سنتتبع مسار هذه الأصوات في رسم بلاغة الاستصراخ التي تتراوح بين تشكيل الأهواء وفق استراتيجيات خاصة، تضطلع بوظيفة دغدغة مشاعر المخاطب، استنادا إلى مواضع متفق عليها مسبقا، وحقل عاطفي غني، ناهيك عن سلسلة من الأساليب الحجاجية والبلاغية التي تتضافر مع بعضها لتشكيل بلاغة هذا الخطاب، الذي لاينفك عن سياق إنتاجه العام.

This article deals with the rhetoric of "pleading" or "appealing" in political discourse. It aims at displaying the rhetoric of this discourse in political letters in which the kings of Tawaeif made an appeal. Such discourse is characterised by its call for fight. To analyze these letters, we have made use of the approach of rhetoric which is based on several strategies that help in disclosing the argumentative and rhetorical styles contributed to the composition of such texts

المدخل:

اهتمت البلاغة التي أرسى مبادئها الأولى أرسطو، بتحليل الخطابات الشفهية، والمكتوبة، من منظور حجاجي، يأخذ نمط النص، ونوعه، ومقامه بعين الاعتبار، فيحلله في ضوء سياقه التاريخي منطلقا من مسلمة مفادها أن أي نص تتحكم في إنتاجه مجموعة من الظروف، وتتداخل في رصف لبناته وتحديد مجراه، طبيعة ومنزلة أطرافه المشكلة له (المرسل والمرسل إليه)، علاوة على كشفه للدعوى التي يتوخى النص تحقيقها، وذلك ليتسنى له معرفة المجرى الذي سيأخذه النص، والاستراتيجية التي سيرتكز عليها النص في بناء حجاجه، بحكم أن كل نص –وبالرجوع إلى طبيعته – يستند إلى استراتيجيات مناسبة دون أخرى، والرسائل التي سنعمل على تحليلها هنا تنطلق من سياق مفاده بصفة عامة، أن المرسل يوجد في ظروف جد صعبة، فالأندلس بعد سقوط طليطلة أصابها الرعب والفزع من الممالك القشتالية فاستصرخت بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، والشيء نفسه مع أهل بربشتر الذين بلغ منهم الأذى أقصاه، ما دفعهم إلى الاستنجاد بملوك الطوائف، وهذا ليس ببعيد عن أهل سرقسطة الذين ضيق عليهم الفونسو الخناق حتى فنيت الأقوات، وبلغت النفوس الغرغرة، فلم يسعهم إلا تجديد دعوى الاستصراخ إلى والي شمال الأندلس الطاهر بن تميم بعد نكوصه المفاجئ[1] ، فالمتلقي يكون دائما أعلى مرتبة، وأحسن حالا من وضع المرسل المزري، وعليه يمكننا القول بأننا بصدد إنجاز مقاربة بلاغية لخطاب مشوري يقوم على نوع خطابي محدد، هو رسالة الحرب أو الاستصراخ، تدعو إلى الحرب لكن ظروف إنتاجها جعلت هذه الدعوى ممزوجة بصوت الاستغاثة؛ بمعنى أن نص الرسالة ينبني على خطابين متداخلين، خطاب الجهاد و الاستصراخ، أي أن الدعوى ستكون منغصة ومثقلة بإثارة انفعالات المسلمين، أو بمعنى آخر فإن الخطاب لن يتجه نحو الحجاج العقلي، مادام أن المتلقي (المباشر و الضمني) غير منكر أو جاحد بالدعوى، وإنما سيتوجه إلى مخاطب وضع في موضع "الغافل المقصر فيما يجب عليه "[2] من الجهاد ونصرة الأخ المسلم، لأجل ذلك كان على الخطيب أن يحمل مخاطبه "على الانتقال من موضع الغفلة والتقصير إلى موضع العمل بالواجبات الملقاة على عاتقه"[3]، ومادام أن الخطاب يروم إلى خلق فعل ما عند المتلقي، فإننا نستشف بداية أن النص لن يستند إلى توظيف استراتيجيات اللجوس والايتوس وإنما سيتجه نحو توظيف استراتيجيات الباطوس التي تسمح بتمرير خطابات عاطفية قادرة على تحريك نزوات المتلقي، وهذا لا يعني نفيا كليا للاستراتجيتين السابقتين، وإنما المقصود أن حضورها في النص سيكون حضورا ثانويا، مضمنا بالأهواء، أو بمعنى آخر فإنها ستظل في النص دائما خادمة للباطوس، ولذلك انخرط المرسل في حجاج عاطفي، من خلال إثارة أهواء المتلقي بُغية الانتقال به من الاعتقاد والإيمان إلى العمل بالدعوى، ولتحقيق ذلك أثار في وجدان المتلقي جملة من الأهواء بالاستناد إلى مجموعة من الإستراتيجيات الخطابية و الوسائل البلاغية القمينة ببعث الأهواء، كما لم يمنع نوع الخطاب ودعواه من استناد المرسل إلى بناء صورة الذات في النص وجعلها مساهمة في بلورة حجاجية النص وفي تحقيق التأثير، ولما كانت استراتيجية الأهواء لا تتوفر على حجج جاهزة، فإن الباث اعتمد على قوة اللغة البلاغية مستفيدا من طاقتها الحجاجية، فشحنها بأنغام من المثيرات الوجدانية الجديرة بتحريك نزوات المتلقي وتوجيه أفعاله.

1- الأهواء في خطاب الاستصراخ.

يراهن الباث في خطاب الاستصراخ على تحريك نزوات المتلقي بجملة من الأهواء التي يراها جديرة بخلق الحركة والفعل عنده، ولهذا انطوت هذه الرسائل على عدة مهيجات وجدانية تُبرِز استحقاق جانب مهم من البلاغة للمحاججة و الإقناع، ففي هذا النص لا نجد أنفسنا أمام ركام من الحجج والاستدلالات العقلية التي تَجنح نَحو مَنطقِة البلاغة، وإنما نحن بصدد حجاج آخر يركز على نوازع المتلقي وينقله، من الإقناع إلى الاستجابة والعمل بالدعوى؛ بمعنى يستهدف حركته وإرادته وليس عقله، ولكي يتسنى للمرسل خلق الفعل عند المرسل إليه فهو في حاجة دائما إلى أن يكون ملما بظروفه، واعتقاداته، وما يمكن أن يثير نزواته، ولهذا جعل

المخاطِب كل من الدين والأخوة والإنسانية، المواضع التي سيبني عليها حجاجه، ولما كان هذا الضرب من الحجاج " الباطوس" يقتضي توجيه السهام نحو القلب، فإن المرسل بحاجة إلى فتح أذن المتلقي لكي يسمع إليه أولا، واستمالته لكي يصل إلى قلبه فيبعث فيها الأهواء ثانيا، وهو نفس الشيء الذي يلاحظه المحلل البلاغي عند تحليل هذه الرسالات الثلاث، فالمرسل يشرع في بداية الرسالة بإثارة الإحساس بالعجب والعظمة في نفس المتلقي، فبعد الدعاء له مباشرة بدأ يمدحه ويرفع من قدره، " أطال الله بقاء الأمير الأجل الرفيع القدر والمحل."[4]، ففي الأول يثير انتباهه، وفي الثاني يستميله إليه للاستماع إلى ما تعجبه نفسه من الرفعة و العظمة، فعندما يقدم الباث المتلقي على أنه نور الهدى وسبيل الخير سبيله " لما كان نور الهدى دليلك، وسبيل الخير سبيلك "[5] فهو مدح كفيل ببعث العجب والعظمة في وجدانه ، وحتى إذا أعجب بنفسه، وأحس بذاته، أقرن المرسل تمام هذه العظمة بنصرته لهم، فأثار في وجدانه الإحساس بالمسئولية؛ حيث جعل الاستجابة للدعوى والذود عن حمى الإسلام، والمسلمين، من الملزمات عليه " المطالب بدمايها "[6] " انتم المسئولون عن صبيتنا وأطفالنا"[7]، وعليه فعظمة ومروءة المتلقي لا تكتمل إلا بقيامه بالمسئولية المنوطة به؛ وهو ما لم يمنع الباث في هذا النوع من الخطاب أحيانا من أن يجعل الاستغاثة به من الواجبات عليه كما هو الحال هنا ، "وجب أن تستدعى لما أعضل من الداء، و تستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء "[8]، ثم علق نصرتَهم بإجابته للدعوى، ليرفع سقف المسؤولية إلى أقصى منزلة، فقال "وما هو إلا نفس خافت، ورمق زاهق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالا، وتتداركوها ركبانا وثقالا "[9].

وبعد أن تمكن الباث من ساحة قلب المتلقي، وأعار سمعه إليه وفتح قلبه لاستقبال كلماته، بإثارة العظمة والمسئولية في نفسه، تماشيا مع ما يقتضيه مقام الإمارة من التمجيد والتعظيم انتقل على إثر ذلك إلى إثارة أهواء رئيسة تهدف بشكل مباشر إلى حمل المخاطَب على مؤازرة المرسل في جهاد عدوه وعدوهم، لذلك نجده يثير في نفسه الإحساس بالشفقة والنقمة عبر عرض صور قمينة ببعث ذلك، من قبيل مشاهد الأسر والتعذيب والقتل " يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى، يعدن في أوثاق الأسارى،[...] والضرر الذي مسهم عظيم جهيد،[...] أمة قد نهكهم ألم الجوع"[10]، وقد لا تؤثر هذه المشاهد في متلقي قضى حياته في الحرب ورؤية الدماء، لذلك يعرج المرسل في غالب الأحيان عن هذا إلى تحريك وجدان السامع بالإحساس بالحمية الدينية، باعتبار الدين هو عصم كل مسلم، فأنزل هذه القضية منزلة الدين، وجعل نصرة أهله نصرة للإسلام، وهزيمتهم هزيمة له،" ويا للإسلام قد انتهك حماه، وفضت عراه، وبلغ المأمون من بيضة عداه."[11].

إن المرسل حينما ربط قضيته بما هو ديني، جعل دعواه كفيلة بالقبول عند متلقي يسعى إلى نيل رضى ربه، والفوز بجنته، والجهاد هو باب من أبوابها فلا محيد للمتلقي عن رد هذه الدعوى، وكأن الباث أحس في الأخير بأن المستمع متردد في الاستجابة، فعقب على ما ذكرنا من مُهيجات بإثارة الإحساس بالثقة في النفس؛ حيث حثه على نصرتهم مبرزا له قوته وأهليته لهذه المسئولية، بما لديه من عدة وعتاد، وبما يضمنه الله لعباده من النصرة، ويُجزِله من العطايا الدنيوية والأخروية، " إن حزب الله هم الغالبون، ولقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره "[12].

علاوة على ما ذكرنا فإن خطاب الاستصراخ وعلى الرغم من دعوته المغلفة بصوت النجدة إلا أنه أحيانا يلجأ إلى إثارة – إلى جانب ما ذكرنا – الإحساس بالخوف والأمل تماشيا مع سياق النص، مستفيدا من حب المتلقي للدنيا وطمعه الدائم في الآخرة، فيخوفه من خطر العدو على دنياه، ويرغبه في الجهاد للفوز بالآخرة، " وقاتلوهم في أطرافهم قبل أن يقاتلوكم في أكنافكم، وجاهدوهم في ثغورهم قبل أن يجاهدوكم في دوركم "[13].

2- إستراتيجيات بناء الأهواء.

لقد أشرنا سابقا إلى أن المرسل أثار في وجدان المتلقي جملة من الأهواء، وهنا نشير إلى الإستراتيجيات التي اعتمدها في إثارة تلك الأهواء، لأن أي حس عاطفي يتشكل عند المتلقي من خلال قراءته أو سماعه لهذه الرسائل، إلا وله ما يبعثه في النص من ملفوظات عاطفية في حد ذاتها، أو إستراتيجيات يكشفها المحلل البلاغي بعد القراءة المعمقة، والتحليل الدقيق، وهي إستراتيجيات تستند إلى مواضع مشتركة بين طرفي التخاطب، فإذا كانا يُدينان دينا واحدا، ويشتركان رقعة جغرافية واحدة، وتجمعهما حقوق وواجبات متبادلة، فإن ذلك كفيل بأن يبني خطابا مؤثرا، لأنه ينطلق من أشياء مسلم بها، ومبادئ متبناة، وقواعد متفق عليها، فالأخ يحمي أخاه من العدو، والمسلم يذود عن حمى دينه، والوالي مسؤول عن رعيته ولا يحق له تركها للهلاك، وعليه سنتطرق في الأسطر التالية إلى عرض هذه الإستراتيجيات على النحو التالي:

أ- إستراتيجية تصوير الأحداث.

تعد هذه الإستراتيجية عنصرا مهما في الرسائل الأندلسية الاستصراخية، فما من رسالة إلا وتتوفر على قسط كبير من التصوير، ويفسر هذا الحضور بالدور الذي يقوم به التصوير في عرض الأحداث وتشخيصها، وهو ما نلاحظه في رسالة بن عبد البر إلى رؤساء الأندلس،[14] فقد انصب اهتمام المرسل في بناء خطابه الحجاجي على وصف الأحداث التي عرفتها بربشتر؛ حيث شرع في شحن نصه بمشاهد القتل والتنكيل والتعذيب والتخريب التي مارسها العدو في حقهم وحق مقدساتهم ودُورِهم، وتكمن حجاجية هذا الوصف في إثارة أهواء المتلقي، ودفعه إلى الإستجابة للدعوى، فنقل تلك الأحداث وتقديمها للمخاطب في شكل سلسلة من مشاهد التعذيب المفزعة للنفوس والمسخنة للعيون، جديرة بأن تبعث في نفس المتلقي الإحساس بالانفعالات المذكورة أعلاه، وتخلق الفعل عنده، وقد أودع المرسل في نسج خيوط هذا الوصف مشهدين :

- المشهد الأول: خاص بتعذيب أهل بربشتر؛ حيث ركز هنا آلته التصويرية على تصوير النساء والصبيان والشيوخ، يسبون ويعذبون ويقتلون، والأئمة والمتدينون والمؤذنون يذبَّحون ويحرَّقون، "صمت الآذان بصراخ الصبيان، وبكاء الولدان " ،"سيقت النساء والولدان، مابين عارية وعريان، قودا بالنواصي إلى كل مكان، طورا على المتون، وطورا على البطون[...] والأئمة والمتدينون و القومة و المؤذنون يجرهم الأعلاج كما تجر الذبائح إلى الذابح، يكبون على وجوههم في المساجد صاغرين، ثم أضرمت عليهم نارا حتى صاروا رمادا"[15]، ويروم المرسل من هذا الإسهاب في السرد الوصفي إظهار جبروت العدو وتقبيح صورته في عين المتلقي حتى يثير في نفسه السخط والنقمة عليه، مقابل الشفقة على وضع أهل بربشتر.
- المشهد الثاني: ينقل لنا صور تهديم وتخريب دور وأملاك أهل بربشتر، والمصاحف التي تمزق والمساجد والمآذن التي تحرق وتستغل لإعلاء كلمة الكفر، "وأثاث يُنتهب، ومصاحف تمزق، ومساجد تحرق"[16]، "وما ظنكم وقد رأيتم الجوامع والصوامع بعد تلاوة القرآن، وحلاوة الآذان، مطبقة بالشرك والبهتان، مشحونة بالنواقيس والصلبان، وعلت فيها كلمة الكفر ..."[17]، فقد اختار المرسل هذه المشاهد الواقعية ليجعلها استدلالا على دعواه ويظهرها في صورة تكون أكثر أهلية للنصرة، فيبادر السامعون رجالا وركبانا لجهاد عدو الله.

وإذا كنا في الرسالة السابقة وغيرها -وهو الأكثر- نجد الباث أسهب في التصوير، باستعمال الأساليب الحسية بكثرة، فإننا في رسالة قاضي سرقسطة إلى الطاهر تميم بن يوسف[18] نجد غير ذلك، فلم يلجأ المرسل إلى الصور الحسية، وإنما قدم ذلك في أسلوب عادي، لا يتجاوز أن يكون مخبرا، لكن هذا الإخبار والتصوير مثقل بالحجاج العاطفي، الذي يستهدف وجدان المتلقي ويخلق الحركة عنده، وقد جاءت هذه الإستراتيجية الحجاجية على ضربين، أحدهما يستند إلى حجاجية المكان، فهو يجيب عن سؤال أين؟[19]

،ويؤسس على تلك الإجابة خطابا حجاجيا يثير في حفيظة المتلقي الشعور بالحمية الدينية، لأن الأماكن التي يستند إليها تمثل أهم مقدسات ورموز الديانة الإسلامية، وبالتالي تصوير مكان كالمسجد وقد لحقه من التخريب ما لحقه على يد العدو حتى أضحى مركزا للوثنية وموطنا تطؤه أقدام الكفار، كفيل بأن يبعث الإحساس بالحمية الدينية في نفس المتلقي المسلم، فتحركه حميته للذود عن حمى الإسلام، وإيقاف أصوات أجراس الكنائس التي حلت مكان الآذان، وأصوات القرآن، ومن ذلك قوله " ويا حسرة على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك طال ما عمرت بالإيمان وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن ترجع مراتع للصلبان، ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان[...] وياويلاه على مسجد جامعها المكرم، وقد كان مأنوسا بتلاوة القرآن [...] تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها..."540.

هذا فيما يخص الضرب الأول أما إذا انتقلنا إلى الضرب الثاني، فسنجد المتلقي راهن على إثارة الإحساس بالشفقة والسخط من خلال تصوير وضع أهل سرقسطة إثر حصار بن رذمير لهم، " من أمة قد نهكهم ألم الجوع، وبلغ المدى بهم من الضرر الوجيع [...] فترى الأطفال بل الرجال جوعا يجرون يلوذون برحمة الله ويستغيثون..." فحالة أهل هذه المدينة، كما تخبر العبارة السالفة منهكون بالجوع ويتضرعون، وعلى قصرها، ومحايدتها للإطناب، إلا أنها تشغل حيزا واسعا من فكر وخيال المتلقي، فسبب جوعهم هو قلة بل فناء القوت، نتيجة إحكام بن رذمير الحصار عليهم، ومنعه لجواز الغذاء إلى الداخل، وبالتالي الحل الوحيد الذي يبقى لإنقاذ هذه الحناجر التي تتضرع للمتلقي هو الجهاد، وهي الدعوى التي يراهن عليها المتلقي، حينما لجأ إلى تحريك وجدان المخاطب بالشفقة على أهل سرقسطة من جهة، والإحساس بالنقمة والسخط على ابن رذمير الجائر من جهة ثانية.

ب–استراتيجية المعجم العاطفي.

إذا كان المرسل اعتمد في الإستراتيجية الآنفة الذكر على أسلوب التصوير في حمل الحجاج العاطفي، فإنه هنا استند إلى ملفوظات عاطفية في ذاتها، فأحداث من قبيل القتل التعذيب الأسر، لا تثير حفيظة المتلقي دائما، لأنها تجد أحيانا مسوغات تبررها، كقتل جندي لجندي آخر في حرب دفاعية مثلا، وبالتالي الإجابة عن سؤال من وقع عليه الفعل، يغدو تارة مصدر تتضوع منه انفعالات المتلقي،[20] لاسيما عندما يكون المقتول أو المعذب أو المأسور شخصا بريئا، كالأطفال أو النساء ممن لا يحملون السلاح، فالإعلان في النص عن أسماء من قبيل، النساء والبنات والصبيان والإخبار عنهم أنهم ساروا في أوثاق الأسرى، وانقلبوا غصبا عنهم من العفة والستر إلى البروز للكفار، ومن الإيمان إلى الكفر، قمين بأن يثير في نفس المتلقي السخط على العدو، وتصيبه الرحمة على إخوانه المسلمين، والأطفال والمسنين من أهل سرقسطة، فيلبي نداء الاستصراخ منتصرا لدينه وإنسانيته، ومما يثير ذلك في النص قوله " ثم يا حسرتاه على نسوة مكنونات عذارى، يعدن في أوثاق الأسرى [...] على بنات قد كن من الستر نجيبات الوجوه، أن يروا فيهن الستر والمكروه، وقد كن لا يبدون للنظارة، فالآن حان أن يبرزن للكفار، وعلى صبية قد كان نشئوا في حجور الإيمان، يصيرون في عبدة الأوثان."[21]، والشيء نفسه نلمسه في رسالة ابن عبد البر لكن بصوت أقوى وألفاظ عاطفية أكثر تأثيرا وإقناعا من الأولى، بوقوفه على كلمات قوية عاطفيا، وتزداد قوتها بتقديمها في قالب مبالغ فيه، وفي زمان الماضي ليفيد الحدوث الذي لا شك ولا مراء فيه، ومن ذلك قوله بصريح العبارة، "أجفاننا قرحى، وأكبادنا حرى"[22] انتهت حالنا إلى" ما يوجع القلوب سماعه، كما قصم الظهور وأسخن العيون اطلاعه "[23]، "كثر الضجيع والعويل و النياح [...]صمَّت الآذان بصراخ الصبيان، ونياح النسوان، وبكاء الولدان.."، هذه الملفوظات المحملة بشحنات عاطفية، تستمدها من رغبة المرسل في نقل مشهد التنكيل الذي آلوا إليه جراء بطش العدو بهم، قمينة بأن تثير الشفقة في قلب المتلقي من جهة، والسخط والغضب على العدو من جهة أخرى.

وبناء على ما ذكرنا يمكن القول إن نهل الباث من المعجم العاطفي يسوغ له التأثير في المتلقي بشكل مباشر فيميل إلى التعاطف مع الصبيان، والولدان والنسوان والشفقة على ما صارت إليه البنات العفيفات، وفي نفس الوقت يتصاعد في نفسه النقمة على العدو الفاتك بإخوانه، ولرفع حدة هذا السخط لجأ إلى تشويه صورة العدو.

ت–إستراتيجية التنقيص من الخصم.

تماما كما أشرنا فإن المرسل لأجل رفع سقف انفعال السخط في وجدان المتلقي عدل إلى التنقيص من قيمة الخصم، وهي استراتيجية لا تقل قيمة عن الاستراتيجيات الأخرى حضورا في خطاب الاستصراخ، ويتجلى ذلك في النص من خلال إسناده إلى الخصم صفات سلبية، " مشاهد ذميمة لعبدة الأوثان [...] تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها، ويؤملون أن يدنسوه بقبيح آثامها"، أو من خلال إلحاق صورة الخصم بالشيطان، كناية على درجة شره وظلمه، " أهل الكفر وأصحاب الشيطان "[24]، فإسناد الخصم إلى الشيطان جدير بأن يثير غضب المتلقي عليه لكونه يمثل رمز الشر، وحتى وإن لم يكن الرهان هنا على شخص العدو، وإنما على تحقيق الدعوى، إلا أن بناء صورة مشوهة في ذهن المتلقي على العدو، تساهم في رفع درجة السخط عنده عليه، وهو ما يدفع السامع إلى الاستجابة للدعوى، لاسيما عندما يجنح به المرسل إلى نقل مشاهد تعرض مساس العدو برموز الإسلام، "ويتخذوه (المسجد) معاطن لخنازيرها، ومواطن لخماراتها ومواخيرها ..." 539، فتحويله لبيوت الله إلى مكان للخنازير وبيع الخمور، تصوير يجعل المتلقي يتخيل المساجد التي كانت تأوي المصلين، أغدت على يد الكفار وكرا تدخر فيه الخمور وتشرب، ومرتعا للخنازير، ونحن نعلم الصورة التي يحتفظ بها المسلمون في أذهانهم على الخنازير، فهو ذلك الحيوان الخبيث المذموم، بكل هذه الصفات يصبح يأوي إلى مسجد الله، فهذا كفيل بأن يبعث في المتلقي الإحساس بالنقمة على العدو، ثم أن خطاب الاستصراخ في شموليته يصبو إلى الإخبار على أن العدو هو شخص دموي سفاك لدماء الأبرياء يقتل النساء والولدان والصبيان بل المؤذنون والصائمون وبأبشع صور القتل هو الإحراق، "و الأئمة والقومة والمؤذنون يجرهم الأعلاج كما تجر الذبائح إلى الذابح [...] ثم أضرمت عليهم نارا حتى صارت رمادا "[25].

ث– بناء صورة الذات.

يعتبر إظهار الذات من الإستراتيجيات الخطابية التي يعتمد عليها الخطيب في بناء حجاجه، ويقتضي السياق النوعي للرسالة الاستصراخية أن تشكل الذات المرسلة صورتها في ضوء الوظيفة الحجاجية المهيمنة في النص، ومن ثم فإن الإيتوس يتداخل هنا مع الباطوس ويخدمه، ونلاحظ هذا في رسالة قاضي سرقسطة، فكما جرت العادة في الرسائل فإن المرسل يبتدئ رسالته بالدعاء للمرسل إليه، وهذه الاستراتيجية إلى جانب أنها تعطي صورة من الاحترام والتقدير الذي يكنه المرسل للمتلقي، فإنها كذلك تهدف إلى خلق شعور الإعجاب والعظمة في نفس المتلقي، حتى يغدو يرى نفسه بأنه مهم وجدير بهذا الدعاء، ويعتبر الدعاء أسلوبا ناجعا في استمالة المخاطب، فهو يقدم صورة عن المرسل بأنه إنسان خلوق، يُكنّ للمخاطب احتراما وتقديرا، فيصبح هذا الأسلوب تمهيدا لاستمالة المتلقي للاستماع للرسالة، ويستمر الباث في الحجاج على نفس الوتر، فبعد أن دعا له شرع يمدحه، ويُعلي من قدره، لكن المدح جاء هنا مقرونا بالدعوى التي يصبو إلى تحقيقها، لذلك جاء إجلاله وتعظيمه له معللا بصنيعه، فهو رفيع القدر والمحل لما يقدمه لحرم الإسلام، ومن كرب عظيم يزيحه عن المسلمين، بل حتى الدعاء له اتصل بغاية الدعوى التي يروم تبليغها، " وفقك الله لِشْرِا دار حسناه، بمجاهدة عداه " ، هنا أضحت مجاهدة أعداء الله ثمنا يدفعه لشراء جنته، ويعد انتفاء الثمن هنا انتفاء للشيء المشترى، فقد جمع الباث بين الدعاء والمدح وهما معا جديرين بأن يثيرا في وجدان المتلقي الإحساس بالعجب والعظمة.

وفي نفس سياق بعث الإحساس بالعجب، عدل المرسل إلى إظهار المتلقي في صورة القوي المستحق لهذه المسئولية التي تطرحها الرسالة، فاستند إلى أسلوب المبالغة في طلب قدومه إلى إنقاذهم، فالرجال والأطفال " يتمنون قدومه بل يتضرعون "، والانتقال من التمني إلى التضرع كفيل بأن يضاعف من حدة التأثير في المتلقي، كما يساهم كذلك في إبراز صورته، فكيف لا وهو الذي يلوذ به الجمهور، فمن خلال هذا يقدم المرسل المتلقي في صورة من يستحق أن تناط إليه هذه المسئولية، وتلجأ وتستصرخ به الأمة، لأنه لن يخيب آمالهم، وهنا سيجد المتلقي نفسه في موقف حرج، فلا يمكنه أن يخيب ظن إخوانه فيه، "نحن مؤمنون بل موقنون إجابتك إلى نصرتنا، وإعدادك إلى الدفاع عن حضرتنا"[26]، ولكي يضمن القبول لدعواه استند إلى ربط الإجابة بإجابة دعوى الله، حيث يغدو المرسل هنا هو الله، ودعواه هي دعوى الله، ودفاعه سيكون من أجل الله ودينه، وليس من أجل شرذمة من أهل سرقسطة، " فدفاعك إنما هو في يد الله وعن كلمه، ومحاماه عن الإسلام وحزبه "[27]، فهذا التصعيد في سلم المسئولية إلى حد إقران الدعوى بأمر الله، ساهم بكل تأكيد في خلخلة وجدان المتلقي ودفعه إلى تلبية صوت النجدة، وكل هذا انبنى في الأساس على الصورة التي قدمها المرسل على المتلقي، فقد حول ايتوسه إلى مادة حجاجية، كفيلة بإثارة العجب أولا والمسئولية ثانيا، ثم الحمية التي ستتمخض منها الاستجابة للدعوى، ولم تقف صورة بناء الذات في هذا الخطاب عند هذا اللون فحسب، بل هناك بعض بناءات الذات ما جاء مغلفا بنسيج ديني ومحصورا بموضع القرابة الجغرافية، وخير مثال على ذلك ما نجده في رسالة ابن عبد البر، وتجدر الإشارة هنا أولا إلى أن الذات لا تقدم نفسها شخصيا وإنما تتنازل عن ذلك لصالح الجماعة التي تنصهر فيها، " من الثغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، والمعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعروة الدين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام ...إلى من .."[28]، فهذا الإطناب في تقديم ذات المرسل لا يفسر إلا في مقصد الرسالة، الذي تؤطره حيثيات ملؤها التعارف والتآخي والالتقاء في جملة من الأساسيات، والمواضع، فمعروف أن المرسَل إليه مسلم، وأن المرسِل يصبو إلى التأثير فيه وحمله على الفعل، وعليه فإن بن عبد البر قدم المرسل إليه في صورة المسلم المؤمن، مسندا إليه مجموعة من الصفات التي ترسخ في ذهن المتلقي الانتماء الديني للمرسل، فهذا الأخير معتقد للتوحيد معترف بالوعد والوعيد معتصم بالإسلام مقيم على سنة نبيه ...، وهو ما سيضرم نار الحمية الدينية التي ستدفعه للجهاد ليس دفعا تطوعيا ولكن دفعا واجبا لما يقوم عليه هذا الاعتقاد من واجب النصرة للأخ المسلم، ولكي يضاعف هذا الإحساس استند إلى حجاجية المكان، فالمرسل يسكن في الثغور القاصية والأطراف النائية عن المسلمين المجاورة لأعدائهم، ومن ثم فهم الذين يحمون المسلمين ويقفون في وجه عدوهم، " المستهلكين في حماية المسلمين " وبناء عليه فنصرتهم شيء واجب على المرسل إليهم، لأن الدائرة ستدور عليهم، والأذى سيعم الجميع إن لم يبادروا إلى صد أذاهم والذود عنهم.

ج- الحجاج بالعواقب.

إن كل الإستراتيجيات التي ذكرنا إلى حد الآن كانت موجهة إلى قلب المتلقي لتبعث الحركة في وجدانه، لكن ما سنقدمه الآن يختلف عنه تماما لأنه يتجه بدرجة أولى إلى مخاطبة عقل المتلقي، وذلك حينما يلجأ إلى المحاججة بالعواقب، وتتشابه الرسائل في توظيفها لهذه الإستراتيجية لذلك سنمثل لها برسالة قاضي سرقسطة التي حذر فيها الطاهر تميم من العواقب التي سيجنيها إن هو تقاعس عن نصرتهم، وسمح بسقوط سرقسطة بيد الكفار منبها إياه إلى أنهم لن يكتفوا بها، بل سيسعون إلى فتح مدن الأندلس كلها واحدة واحدة، وهو حجاج قوي وقياس ناجع لإثارة حفيظة المتلقي الذي نكص عن نصرتهم سابقا خوفا على جيشه من الهلاك، وعلى ملكه من الضياع، فالباث هنا وكأنه يستجوبه بأن الملك الذي خاف عليه سيبدأ فناؤه بسقوط سرقسطة، فهي السد المنيع الذي إن " فتق فتقت بعده أسداد، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار"، فتخويف المتلقي بأن زوال ملكه مقترن بزوال سرقسطة، وبقاءه مقرون ببقائها، سيبعث في نفسه الخوف من المستقبل، -والخوف هنا ليس خوفا مغالطيا يهدف إلى الهيمنة

والإكراه وإنما هو خوف مقبول، أريد به التنبيه والتحذير- وسيدفعه إلى التفكير لإيجاد حل يوقف هذا المد الصليبي، وإطفاء تلك النار التي أوشكت على حرقته، فهي لم تعد مجرد منطقة جغرافية تستنجد به لأنها تنتمي لملكه، وإنما هي حاجز يمنع عنه هجمات الممالك النصرانية، الذي إذا زال لن يجد ما سيصد عنه رماحهم، ويرد عليه هجماتهم، " أتحسبون يا معشرة المرابطين[...]إن سبق على سرقسطة القدر، بما يتوقع منه المكروه والحذر، أنكم تبلغون بعدها ريقا[...]كلا ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفرارا، وليخرجنكم منها دارا فدارا "540، فإنزال الباث سرقسطة هذه المنزلة هو في ذاته انتقال من الاستغاثة إلى الجبر والإلزام، فلما جعل الاستجابة للدعوى هو الحل الأسلم والوحيد الذي يضمن للمتلقي أمنه وسلامته، ويحفظ له ملكه، كان ذلك حجة عقلية سددها إلى عقل المتلقي ليصدر الأمر للجوارح فتتحرك لتلبية نداء النجدة، قبل أن تدور عليه الدائرة، وحينها تجر عليه عواقب وخيمة، ولما كان احتمال عدم استجابته مطروحا فإنه عدل إلى إبراز الخاتمة السلبية لذلك على شرفه وسمعة المرابطين عامة، حتى يتسنى له إحجامه عن ذلك الرأي، لأن من طبع الإنسان السهر على الحفاظ على قيمته، وصورته بين الناس، وميلهم إلى أن يذكروا بالجميل، ويمدحوا بين الأمم، فاستغل هذا الموضع وحاجج المتلقي من زاويته، حيث يقول " وتثبطكم عن إجابة نادينا، وهذا حال نعيذك أيها الأمير عنها، فإنها تحملك من العار ما لم تحمله أحدا، وتورثك وجميع المرابطين الخزي أبدا"541، " فالمنية ولا الدنية، والنار ولا العار، فأين النفوس الأبية، وأين الأنفة والحمية " .

إذا كان الباث ركز في حجاجه هنا على منافع وعواقب دنيوية فإنه سينتقل بعد ذلك إلى استهداف طمع المتلقي الأخروي، مستغلا في ذلك عقيدته التي ترتكز على إثارة الآخرة على الدنيا، والترغيب في العمل الصالح للفوز بالجنة الأبدية، وعليه جعل من دعوته (الجهاد) سبيلا لتحقيق تلك الغاية " هذه أبواب الجنة قد فتحت"، وهو ما سيساهم في تصعيد أهمية الاستجابة عند المتلقي لأنها " ستورثه عند الله المنزلة العليا"541، ولتحفيز المتلقي أكثر على قبول الدعوى عقب على ذلك باستنهاض همه الجهادية من خلال تعضيد هذه الدعوى بالعناية والتوفيق الرباني،" إن حزب الله هم الغالبون، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره، ولمن حام عن دينه أن يؤيده ويظهره "540، فهو في هذه الاستجابة سيكون مصحوبا بالنصر الإلهي، ومن كان الله في عونه فلن يخسر أبدا، ومن ثم فهو منصور من الله، فلماذا التقاعس والنكوص، وما عليه الآن إلا الخروج لنجدة إخوانه.

ح- الوسائل البلاغية واللسانية المعتمدة في إثارة الأهواء.

إن المحلل البلاغي لرسائل الاستصراخ الأندلسية يلاحظ أن إثارة العواطف الداخلية لدى المتلقي في هذا النوع الخطابي لا تنحصر في استعمال الاستراتيجيات الخطابية التي تبعث الأهواء بشكل مباشر وصريح كما رأينا آنفا، بل يتعدى هذا الاستعمال استعمال "وسائل لغوية توحي بتلك الأهواء دون أن تدل عليها " [29]، فلنقل الأحداث وتشخيص الأوضاع المزرية التي تعيشها المنطقة المستغيثة، فإن خطاب الاستصراخ يعدل عن استعمال التعبيرات العادية إلى توظيف أسلوب لغوي مجازي تنزاح فيه لغة الخطاب عن طبعها الأصلي إلى وجه آخر حسي، يقدر على نقل كل أشكال تنكيل العدو بالمسلمين (البربشتاريين مثلا) الفائقة الخيال بتصوير الأحداث تصويرا معنويا، يستميل فكر المتلقي، ويشغل خياله حتى يغدو يرى الأمور رأي العين، ويلجأ الباث إلى هذه الطريقة لما يخوله له الأسلوب من قدرة الانتقال من إقناع المتلقي إلى التحكم في وجدانه وتوجيه حركته[30]، لأجل ذلك وظف جملة من الوجوه الأسلوبية التي تتعدى دورها الجمالي إلى آخر حجاجي يدعّم أطروحة الرسالة بما تتمتع به هذه الصور من " سمات قادرة على إنتاج تأثيرات خاصة"[31].

وعليه فإن المحلل لرسالة بن عبد البر يلاحظ أن نص الرسالة جاء متضمنا لبعض الاستعارات من قبيل قوله " نشر الكفر جناحيه "[32]، فهذا التعبير المجازي يعد أكثر قدرة على التأثير من التعبير العادي " انتشر الكفار أو عم المدينة الكفار "، لأن

هذا الأخير يقوم بوظيفة إخبارية فحسب، بينما الأول يُنشئ واقعا جديدا ومحسوسا في ذهن المتلقي، ويرسخ الدعوى عنده، مما يجعلها قمينة بالاستجابة، وتتجلى حجاجية هذا التعبير في كونه يعرض الفكرة في قالب ملموس يجلب عقل المتلقي ليتخيل هذا الشيء المصور له، ولهذا قدم الكفر في صورة طائر يضع جناحيه على بربشتر، فالمتلقي ما أن تطرق سمعه هذه الصورة، حتى يسرح بذهنه يتخيل الكفر في صورة طائر كبير يحوز بربشتر كلها بجناحيه، وهو ليس ككل الطيور بل هو طائر مفترس – "أبدى الشرك ناجذيه "– ، ينشر الشر، ويلحق الأذى بالمكان الذي يحل به، فالباث في هذا السياق يروم إلى تشكيل هذه الصورة في ذهن المتلقي تشكيلا ماديا، يجعله يلمس بعقله قدر الموقف، ويزن هول الرزية التي أحدثها العدو ببني جلدته، فتعظم الصورة عنده، بقدر عِظم هذا الحيوان المفترس الذي حل على رؤوس إخوته، فهذا التعبير المجازي يخدم غرضين، أحدهما جمالي، يُشبع العينين جمالا ورونقا، لاسيما عندما أضفى عليه رنة صوتية بتسجيعه له، مما جعله أكثر إبرازا واستمالة للقلوب، والثاني حجاجي يبدأ عندما تستقر هذه الصورة الممثلة في القلب؛ حيث ينطلق المتلقي في فك شفرات هذا التصوير، ووقوفه عند حقيقة الصورة الممثلة له، فحينها يتحقق الإقناع بعد حصول الإعجاب، والإمتاع، فتأتي الاستجابة التي يراهن عليها المتلقي.[33]

على نفس المنوال، وفي إطار التنويع لطرد الملل، ومن أجل جلب المتعة، نجد المرسل في خطاب الاستصراخ يتعمد تلوين لوحته بأفنان من الأساليب، فإلى جانب ما ذكرنا، يستعمل أسلوب الكناية في قوله " استطار شرر الشر"[34]، وذلك كناية على كثرة انتشار الشر، فلما أراد أن يعبر عن هذا المعنى، لجأ إلى الكناية، لكي تكون قوته التعبيرية أكثر إبلاغا وتأثيرا، فالشر أصبح في بربشتر بمثابة تلك الشظايا التي تتناثر فتملأ المكان كله، فهو ليس بذلك الشيء المعنوي المختفي، بل هو شرر يتطاير فيبصره الجميع؛ بمعنى استفحل وعم الأرجاء، ومس أذاه الجميع فأغدت " قلوبهم[نا] محترقة" من أثر ذلك الشرر الذي هو كما يتبين عبارة عن شظايا نار الشر التي أضرمها العدو في أوكار البربشتاريين، وهنا تتجلى القوة الحجاجية لهذا التعبير الذي يَعدِل فيه المرسل عن الإخبار إلى إنشاء واقع محسوس داخل ذهن المتلقي، فيفرض عليه سيطرته، ويُصعِّد من نقمته على العدو، وشفقته على إخوانه البربشتاريين، فهذه الصور الحسية إلى جانب دورها الجمالي تؤدي " وظيفة تأثيرية مهمة توجه دعوى الخطاب، وأداة ناجعة لإثارة الانفعالات السابقة "[35]، وربما لم تكن هذه الصورة كافية بتصوير قدر الشر الذي يحمله العدو، لذلك عدل الباث إلى شيطنة صورة العدو وتقديمه في شكل الشيطان باعتباره رمز الشر والنقمة يقول في سياق ذلك: "تمرد الشيطان واستهتر الطغيان"[36]، وبالتالي سيكون قد رفع سقف تشويه صورته وتقبيحها عند المتلقي إلى أقصى مراتبه، وعندها ستتزلزل القلوب المرسل إليها، وستتسارع إلى الذود عن حمى إخوانهم.

لم يتوقف المرسِل عند ما سبق ذكره آنفا، وإنما تجاوز ذلك إلى إغراق نص خطابه بجملة من الأساليب، وأسلوب التشبيه، الذي سنقف عليه هنا هو جزء من ذلك الكل، وآثرنا أن نقف عند مثال واحد هو قوله،" أحاطت بنا كإحاطة القلادة بالعنق "[37]، ساد في العرف أن القلادة في العنق هي زينة له، لكن القلادة هنا، إذا نظرنا إليها في سياقها، نجدها لا تحمل هذا الوجه، وإنما أراد من خلالها الباث أن يؤثث في ذهن المتلقي صورة ذلك الحصار الذي تحدثه القلادة بالعنق، فهي ليست زينة للبربشتاريين، وإنما هي قلادة تُدمي صاحبها، وتحصره في بحر من العذاب والخراب، لأجل هذا مثل المرسل بالقلادة ليصور للمتلقي هيمنة العدو على إخوانهم، ومحاصرته لهم محاصرة لم تترك أحدا إلا وأذاقته عذابها، فهي تشمل وتعم، كما تعم القلادة العنق كله، فهذا التشبيه كفيل بأن يقر المعنى في ذهن المتلقي، ويحدث الشفقة والنقمة في قلبه، فتستجيب الجوارح لغضب واضطراب القلب، وتنطلق مسرعة إلى تلبية الدعوى.

فإذا كانت بعض رسائل الاستصراخ كما رأينا تثقل متنها بجملة من الصور المجازية فهناك أخرى داخل خطاب الاستصراخ تعزف عن ذلك، وتعوض ذلك الفراغ بأساليب أخرى وإن لم تكن ذات طبيعة جمالية إلا أنها قادرة على بعث الحركة داخل النص، ولها استطاعةٌ على إحداث التأثير في المتلقي، ولبيان ذلك نقف عند رسالة قاضي سرقسطة إلى الطاهر تميم.

اعتمد الباث في نسج خيوط هذه الرسالة على جملة من الآليات والوسائل البلاغي واللسانية ذات الوظيفة التأثيرية، التي يصبو إليها أسلوب ما عندما يخرج عن أصل معناه ليفيد غرضا بلاغيا آخر، يعرف حسب السياق ويضطلع بوظيفة إقناعية، يهدف إليها المرسل لأجل تعزيز دعواه، وبعض من هذه الأساليب نلامسها في هذه الرسالة، فقد جاءت غنية بالأساليب التي تضفي على النص دينامية، تنعكس على وجدان المتلقي فتجعله دائم التجاوب مع النص، لا يرتد طرفه عن المرسل، ومما ورد في النص من ذلك توظيفه أسلوب الاستفهام بكثرة، ولأغراض بلاغية متعددة نحو قوله: " فما ظنك أيها الأمير بمن يلوذ به بعد الله الجمهور"، فالاستفهام هنا خرج عن معناه الأصلي ليفيد معنا بلاغيا يعرف من سياق الخطاب، فليس هدف المرسل معرفة مظن الأمير، ولكن غايته من السؤال هو إثارة الإحساس بالتهويل والعظمة في نفس المتلقي، حيث جعله في مرتبة بعد الله للذين يلوذ إليهم الناس في الشدائد، ولصرف ذهن المتلقي إلى هذا المعنى وظف أسلوب الاستفهام، حتى يدخل المتلقي معه في استجواب، فيحافظ على انتباهه، ومن ثم تتحقق الاستمالة ويتأتى التأثير، لاسيما عندما تتوالى أساليب الاستفهام في النص بشكل متسلسل كقوله، " فما هذا الجبن والفزع، وما هذا الهلع والجزع؟، بل ما هذا العار والضيع؟ "، فنفس الشيء هنا، المرسل لا يقصد معرفة شيء مبهم عليه، وإنما السؤال هنا زاغ عن أصله ليفيد الإنكار واللوم، فهو يستنكر على المخاطب إحجامه عن نصرته، ويلومه عن ذلك لأنه يتعارض مع عز الإسلام، والمسلمين وشهامة المرابطين، لذلك سيعقب على هذا بقوله، " فأين النفوس الأبية وأين الأنفة والحمية، وأين الهمم المرابطية "[38]، وهي حلقة من الاستفهامات المتراصة التي تهدف إلى خلخلة كيان المتلقي، بهذه الأسئلة التي يتضوع منها التوبيخ من جهة، والإحساس بالعظمة من جهة ثانية، وذلك عندما قصد الباث إلى استنهاض همم بذكر حميته وأنفته، ويعتبر السؤال كما قلنا هو الأسلوب الأنجع في هذا الضرب من الحجاج العاطفي، لأنه يدخل المخاطب في النص ويستجوبه، فتكون هذه الاستمالة أهلا للتأثير والإقناع، فمثلا عندما يسأله هذا السؤال " فما هذا أيها الأمير الأجل، ألا ترغب في رضوانه "، ففي الشق الأول استنكار على الأمير لنكوصه، عن مقابلة أعداء الله وعباده، مع ما أجزله الله لعباده، المجاهدين في سبيله وتأييده لنصرتهم، وفي الشطر الثاني استفهام بلاغي آخر غرضه إقرار المتلقي لرغبته في رضوان الله، وليس معرفة هل يرغب أم لا، لأن ذلك ظاهر عند المرسل، وإنما قصد إلى هذا ليحمل المتلقي على التفكير في الدعوى، وإبراز فوائدها الأخروية، والتنبيه إلى سوء عواقب إعراضه عنها، فيبقى المتلقي مجبرا على الإجابة على السؤال، وحينها لا يسعه إلا الاستجابة إلى نداء الاستصراخ، الذي تحمله الدعوى.

إن الاستفهام وحده، لا يكفي لتقييم هذه الدعوى، لذلك لجأ المرسل إلى أسلوب التأكيد، فبين الحين والآخر كان يؤكد أشياء يراها قمينة بالثبوت في ذهن المتلقي، فيلجأ إلى ألوان من المؤكدات ليعضد بذلك دعوته ويصرف عنه غفلة وظن المتلقي[39]، ومن ذلك قوله، "كلا والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفرارا، وليخرجنكم منها دارا فدارا"، فمعروف أن استعمال أداة التوكيد مقرون بحالة السامع، فكلما كان بعيدا عن التصديق ضاعفنا من استعمال المؤكدات، وهو ما يفسر هنا استعمال الباث لثلاث أدوات في ملفوظ واحد (القسم واللام ونون التوكيد) وإن كان المتلقي غير جاحد بالدعوى، إلا أن المرسل أنزله هذه المنزلة ووظف ثلاثة مؤكدات قوية حتى لا يتوهم أنه غير صادق، ولكي يبرز له خطورة الموقف وجدية المرسل في قوله، ومدى يقينه مما يذهب إليه، كما أن كثرة أدوات التأكيد تساهم في تثبيت المعلومة عند المتلقي، وبالتالي ستزلزل قوة هذا التأكيد وجدانه، وستدفعه للسير إلى سرقسطة، والحيلولة بينها وبين ابن رذمير، حتى لا يُفتق هذا السد فيطمع الكفار فيما بقي من إمارة الأمير (المتلقي).

وإلى جانب ما ذكرنا من الأساليب البلاغية، وظف المرسل أسلوب الأمر، وهو باختصار "طلب الفعل على وجه الاستعلاء"[40]، والاستعلاء يتطلب أن يكون الآمر أعلى منزلة من المأمور، لكننا في هذه الرسالة كما أشرنا من قبل، نجد المرسل أدنى منزلة من المتلقي، ومع ذلك نلاحظ حضورا مكثفا لأسلوب الأمر، ويفسر ذلك بخروج الأمر عن معناه الحقيقي، إلى معاني أخرى تستفاد من السياق، ففي قوله مثلا " فاقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة"و " فعد بنا عن المطل والتسويف"، فإن الأمر هنا

يفقد كل معاني الاستعلاء ليفيد معنى الرجاء، تماشيا مع ظروف الرسالة، وتلبية لدعوتها، وبينما هو يصدر أوامره هذه، كان من جهة أخرى ينهى المتلقي عن ما يمكن أن يصدر منه من الإعراض والتقاعس، " لا تتأخر كيفما كان طرفة عين[...]ولا ترض بخطة العار."، فجاءت الدعوى محصورة بين الأمر والنهي اللذين يضفيان على النص دينامية تخلخل استعلاء المتلقي دون أن تحطمه، بل تضرم فيه نار الحمية والهمم الجهادية، سيما عندما جعل ذلك النهي معلقا ببيت شعري، مستفيدا من طاقته الإبداعية والتأثيرية في وجدان السامع، ومحدثا تنوعا داخل النص، مخففا على المتلقي ثقل النص السردي، فينتعش لسماع أنغام البيت الشعري، وما أن تطرق قافيته مسامعه حتى يسمع صدى معناه يتردد في خياله، " العبرة بالكيف لا بالكم" فيجمع جيشه ويرزأ لإخوانه، ولفظ قوله ذلك في النص هو." ولا تكن كمن قيل فيه:

يجمع الجيش ذا الألوف ويغزوا .....ولا يرزأ من العدو فتيلا. "540،

إذن فالرسائل السياسية توظف خطاب الاستصراخ الذي يستخدم صورا وسائل لغوية وبلاغية في بناء حجاجه، مستفيدا من قدرتها الإيحائية على الباطوس، فهي وإن لم تكن تؤثر إلا أنها تكون سببا في بعث هذا التأثير، عندما تنقل النص من الجمال إلى الإمتاع ومن السكون إلى الحركة، فتجعله أكثر رونقا واستمالة وحركية وتنوعا في النبرات بين صوت الندبة والاستفهام ...الذي يضفي عليه سحرا جماليا ويجعله أكثر متعة، واستمالة و تأثيرا ثم إقناعا.

خلاصة:

وفي الختام يمكن القول إن المرسل بنى استراتيجية الباطوس من خلال إثارة مجموعة من الأهواء في وجدان المتلقي، وذلك بالاعتماد على جملة من الاستراتيجيات الحجاجية والألفاظ العاطفية، والصور المجازية علاوة على الوسائل البلاغية واللسانية، متخذا من الأسلوب الرافد الأول لحمل هذا الحجاج نظرا لما تتمتع به اللغة من قدرة على التأثير في المتلقي وتوجيه أفعاله، وكذا ليونتها وقدرتها على سرعة التلون وتأقلم أساليبها مع ظروف النص لتنتقل من وظيفتها الأصلية لتؤدي وظائف بلاغية أخرى لها قدرة تداولية و حجاجية أكثر من الأولى، وكان لهذه الأساليب الفضل الأوفر في تعزيز دعوى الاستصراخ، التي ناشدت إليها الرسالة، حتى وإن كانت وظيفتها التأثيرية لا تتعدى الإيحاء والتحريك، ولكن مع ذلك ساهمت بتضافرها مع بعضها بعضا في تصعيد الخطاب نحو تحقيق التأثير و الإقناع، نتيجة ما تضفيه على النص من دينامية دائمة.

الهوامش:

1 ينظر نص الرسالة التي سنحللها في، (محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، [5-541].

2 محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص 43

3 محمد مشبال ، في بلاغة الحجاج، ص.291.

4 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص. 538.

5 الذخيرة، ق 2، ص 488.

6 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 539

7 نفسه، ص 541

8 الذخيرة، ق2، ص 488

9 نفسه، ص 489

10 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 539

11 نفسه.

12 نفسه، ص 540.

13 ابن بسام الشنتريني، الذخيرة، ق 3، ص 136-137

14 نفسه، ص [132-137].

15 الذخيرة، ق 3 ص 135.

16 نفسه، ص 134.

17 نفسه، ص 135.

18 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص [539-541].

19 يشير د مشبال في كتابه "في بلاغة الحجاج " إلى أن المكان يمكن أن يكون مؤشرا على العاطفة، ينظر الفصل منه المخصص للباطوس، ص271.

20 يقول د مشبال "العاطفة تتفاوت وفق هوية الشخص موضوع العاطفية"، في بلاغة الحجاج، ص 270.

21 محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص 539.

22 الذخيرة ق 3، ص 133

23 نفسه، ص 134

24 دولة الاسلام في الأندلس، ص 539.

25 الذخيرة، ق 3، ص 135.

26 دولة الإسلام في الأندلس، ص 541.

27 نفسه.

28 الذخيرة، ق 3، ص 132-133

29 محمد مشبال، في بلاغة الحجاج، ص 288

30 يقول د م مشبال "إن الأسلوب هو الجسر الذي يصل بين العقل والحس" في بلاغة الحجاج، ص 304

روث أموسي نقلا عن مشبال نفسه ص 30531

32 الذخيرة، ق3، ص 133.

33 يقول د محمد مشبال في كتابه " في بلاغة الحجاج ص 104 " وظيفة الصور تسهيل وصول الحجة وتقوية تأثيرها في نفوس السامعين"، وتقول روث أموسي " للتأثير الأسلوبي قدرة على إثارة القلوب ".

الذخيرة، ق 3، ص 13334

35 عبد العالي قادا، الحجاج في الخطاب السياسي، ص 323.

نفسه، ص 13436

نفسه،37

38 نفسه، ص 540

39 حدد الاسترابادي ثلاثة أغراض للتوكيد: 1 منع المتكلم غفلة السامع 2 أن يدفع ظنه بالمتكلم الغلط 3 أن يدفع عن نفسه ظن السامع به تجوزا

40 علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص 150.